

الفصل الثاني

حروب بلاد العرب

الوهابيون في الإسلام كاليوريتان من المسيحيين البروتستانت . وقد سموا بهذا الاسم نسبة إلى مؤسس مذهبهم محمد بن عبد الوهاب الذي ولد في الحوطة^(١) من أعمال نجد حوالي ١٧٠٠ م . وهم قوم شديدو الزهد والتقشف ، يحرمون التحلى بالذهب ولبس الحرير ، ويرون أن المساجد الفخمة أثر من آثار الوثنية ؛ ولا يحرمون الخمر فحسب ، بل يحرمون معها جميع المنبهات ؛ ويعتقدون أن شرب القهوة والدخان إثم وضلال . وهم لا يكتفون بالدعوة إلى عقيدتهم ؛ بل نراهم على استعداد للجهاد في سبيلها ، وكأنما كانوا هم الذين عناهم بتلر Butler بقوله : « إنهم يثبتون صحة عقائدهم بالطعنات والضربات الرسولية » ، ومعلمهم بلاد العرب .

وبينما كان محمد علي والماليك يقتتلان على السيادة في مصر ، كانت مكة ويثرب موطن الحرمين الشريفين ، والمدينتان المقدستان عند كافة المسلمين ، هما قلب البلاد التي تصدر منها التعاليم الوهابية . ومع أن المسلمين يعتقدون أن الحج فرض عليهم ، يؤدونه مرة في حياتهم على الأقل ، فإن الوهابيين يرون أن زيارة المقامات في البلدين ضرباً من الوثنية . ويصفهم أعداؤهم بأنهم لصوص

(١) هذا قول المؤلف ، غير أن الذي يذكره كثير من المؤلفين ومنهم أمين الريحاني والأستاذ حافظ وهبة والمؤرخ ابن بشر أنه ولد في العينة وأن مولده كان في عام ١١١٥ هـ أو ١٧٠٣ م . (العرب)

وقطاع طرق يسرقون الحجاج وينهبون القوافل^(١) .

وليس يهمننا هنا أن نبحث هل هذه التهم صحيحة أو باطلة ؛ وإنما الذى يهمننا هو أن هؤلاء المسلمين ذوى الصلابة والشدة فى الدين أصبحوا قوة سياسية كبيرة لا تخضع لسلطان تركيا خليفة المسلمين . وقد ارتكبوا أثناء عصيانهم من ضروب القسوة ما ضاعف الحقد الناشئ من اختلافهم مع عامة المسلمين فى العقيدة الدينية .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذى حمل السلطان على العمل لقطع دابر الفتنة التى أثار عجاجها سعود بن عبد العزيز ، بعد أن آلت إليه زعامة الحركة الوهابية ، فأصبح بفضل حماس دعايتها صاحب الأمر والنهى فى جزيرة العرب . ولم يكن السلطان سليم من الملوك الأقوياء ، ولكنه ود لو استطاع أن يضرب عصفورين بحجر واحد . فقد كان يغار من محمد على بعد أن أيقن أن قوة تابعه أمست خطراً عليه ؛ فظن أنه إذا استطاع أن يغرى محمداً علياً بمهاجمة سعود ، فإنه لا بد أن يصاب بخسائر مادية شديدة ، وإن أمكنه أن يخمد شوكة الوهابيين . وأراد سليم أن يجلب إلى محمد على القيام بهذا الواجب ، فأخذ يصور له ما سوف تنال مصر من الفخر إذا تمكن الباشا من أن يطهر الإسلام من هذا الوباء الذى ساط على الحرمين الشريفين^(٢) . ولم يكن من الصعب على محمد على أن يدرك أن مصر هى خير مكان يستطيع المهجوم منه على الوهابيين . لكن إغراء السلطان له وملاطفته إياه لم يحمله على استعجال الأمور . وكان الباشا على جهله لحناً حاضر البديهة ، وتشهد التقارير التى أخذ يرسلها تباعاً إلى الباب العالى بقدرته على أن

(١) لو أن هؤلاء الأعداء زاروا بلاد العرب الآن لرأوا بأعينهم الأمن المستتب والنظام

(المعرب)

الشامل .

(المعرب)

(٢) هذا ما لا يقره أحد عليه .

يرد على الرسائل التي دعتة فيها الآستانة لمقاتلة الخارجين على الدين ، برسائل من نوعها و بنفس لهجتها . وإليك مثلاً واحداً من حذق الباشا ومهارته ، منقولاً عن تقرير لم ينشر بعد مؤرخ أول ربيع الثاني من عام ١٢٢٤ وهو يوافق ١٨ من أغسطس سنة ١٨٠٩ .

« إذا اخترقت أبصارنا حجب الغيب التي لا يعلم سرها إلا الله ، ورأينا ما حل بالحرمين الشريفين من بلاء ، وما فرضه العصاة في الحجاز من مذلة ومهانة على زوار الكعبة والقبة الشريفتين ، معقد آمال المسلمين ومتعبد لهم ، إذا فعلنا ذلك أسفنا وتملكتنا سورة الغضب على أولئك العصاة المفسدين . وإنا لنبتمل إلى الله عز وجل أن يعجل بإتقاذ الأرض المقدسة من شرهم وسيئ أعمالهم » (١) .

ومضت عدة شهور بعد كتابة هذا الخطاب قبل أن يرى محمد على أن الأعمال التي كان يقوم بها إبراهيم في صعيد مصر ، من جباية الضرائب ومطاردة المالك ، قد تقدمت تقدماً يسمح إلى طوسن بالسير لقتال الوهابيين . على أن محمداً علياً السياسي العملي الحنك الذي كان يحرر إلى الآستانة تقارير مفعمة بالحماس الديني الملائم لأغراضه الرسمية ، كان في قرارة نفسه مسلماً صادق الإيمان يعني ما يقول . فإذا كان في هذه التقارير قد ضرب على هذه النغمة السابقة لأنها مما يتفق مع أغراضه ، فإنه لم يكن مع ذلك خادعاً مراوفاً .

وكما مرت الشهور والسنون والاستعداد للحملة قائم على قدم وساق زاد محمد على يقيناً بأنه يعد جند الحق ليقضى على أنصار الزيف والضلال . وما لبث أن اعتقد في نفسه أن العناية الإلهية قد سخرته لقتال الخارجين على الإسلام ، وتخليص البلاد المقدسة من أذاهم . ولم يكن يخفى عليه أنه يقدم على حرب عدو ،

(١) المحفوظات الملكية المصرية (القسم التركي) وثيقة رقم ١٦ .

يعتقد أن القتل هو جزاء كل من لا يؤمن بعقيدته مسلماً كان أو مسيحياً . ولم يكن يجهل ، وهو الفطن الأريب ، أن جنوده لن يرحموا عدوا إذا وقعوا في يده نكل بهم أشد تنكيل .

وكان مع طوسن رجل اسكتلندي يدعى توماس كيث Thomas Keith كان قد أسره وكثير من زملائه الذين اشتركوا في الحملة الإنجليزية الأخيرة على مصر ، ونجا من القتل حين اعتنق الإسلام وسمى نفسه إبراهيم ؛ ثم اقتتل هو ومملوك صقلى من ممالك سيده المقربين ، فقتل المملوك وولى هارباً ؛ ثم التجأ إلى زوجة محمد على أم إبراهيم وطوسن فأقنعت ولدها الأصغر باستخدامه في جيشه . ولكنه قبل أن يسافر حكم عليه بالإعدام لإهمال بسيط وقع منه في أداء واجبه ، فأبى الجندى الشجاع أن يسلم نفسه ، وظل نصف ساعة يصد عن باب حجرته عدداً من المهاجمين عليها . ثم قفد من النافذة ولجأ مرة أخرى إلى نصيرته الشفيقة الأولى ، فاسترضت طوسن عنه . وأعجب الأمير بشجاعته فأمر بتعيينه رئيساً على ممالكه الأخصاء . وما زال يجد في أداء واجبه حتى أصبح في شهر إبريل من عام ١٨١٥ حاكماً على المدينة المنورة . ولما كان كيث كعظم أهل بلده مطبوعاً على حسن التصرف في الأمور المالية ، أضفى على مر الزمن قائماً على أموال جيش طوسن . ثم قضى نحبه في ميدان القتال مشحناً بطعنات السيوف^(١) .

وإذا كان طوسن قد رزق رجلاً اسكتلندياً يشرف على شؤونه المالية ، فقد كان في جيش سعود امرأة أخت غمرات ، وهي أرملة أعرابية بقومية اسمها

(١) مذكرات عن البدو والوهابيين جمعها المرحوم جون لويس بركهاردت في أسفاره في الشرق وطبعها في لندن هنري كليرن ورتشارد بنتلي في عام ١٨٣١ الجزء الثاني ص ٢٣٤ ، ٣٤٢ .

غالية^(١) . كان زوجها من شيوخ ثربة ؛ وكانت هي من سراة قومها ، أوتيت من الثروة حظاً لا يعادله حظ عشر من العشائر المجاورة لها . وكانت ندية الكفين تهب المال والزاد للمحتاجين من قبيلتها ؛ وكان بيتها مقصد كل وهابي أمين ، تمد لهم فيه الموائد ، ويعقد زعمائهم فيه المجالس . وكانت هذه السيدة المسنة نافذة البصيرة ، مسددة الرأي ، تشترك مع الرجال في تصريف الأمور . وكان لها في معظم الأحوال الكلمة العليا والرأى المطاع . وبالغ الناس في تقدير ذكائها وأصاله رأيها ، حتى قالوا إنها ساحرة وإنها تستطيع بسحرها أن تجعل النصر على الدوام حليف شيوخ الوهابيين^(٢) .

وليس من قصدنا أن نفصل القول هنا في حروب طوسن مع الوهابيين ، وحسبنا أن نقول إنه احتل مكة والمدينة والثلاث المدن الأخرى في الحجاز ؛ ولكن الحملة بوجه عام أخفقت في بلوغ غرضها ، وبقيت القبائل الضاربة في الجبال التي تخترق البلاد من الشمال إلى الجنوب تدين بالطاعة للأُمير سعود^(٣) . وقابل محمد علي هذه الهزيمة بنزوله إلى الميدان بنفسه . فعهد بمقاييد الحكم في الوجه القبلي إلى ابنه إبراهيم وفي الوجه البحري إلى حسن بك . ثم سافر إلى جدة فوصلها في سبتمبر من عام ١٨١٣ . ولم يمهل القدر سعوداً حتى يتلاقى مع الباشا الدهى شديد الحال ، بل وافاه الأجل على أثر حمى تفشت وقتئذ في نجد . وخلفه ابنه الأكبر عبد الله وكان جندياً صادق البأس خضع له أكابر الوهابيين في حياة سعود .

(١) البقوم من القبائل العربية الكبيرة مقرها جبل حضن وأطرافه حتى تربة والحرماء وأصل البقوم من الأزدي . وكانت غالية أرملة أحد مشايخ سبيع وقد هاجت بنفسها جيوش مصطفى بك فهزمتهم . (المعرب)

(٢) مذكرات عن البدو الجزء الثاني ص ٢٦٩ .

(٣) المصدر عينه الجزء الثاني ص ٢٧٤ ، ٢٤٩ .

وليس من السهل علينا أن نتنبأ بما كان يحدث لو تلاقى محمد علي وعبد الله ؛ لكنهما لم يتلاقيا . وذكر فلنكس منجن Felix Mengin ، الذي كان وكيل القنصل الفرنسي في القاهرة في أوائل حكم محمد علي ، سبب رجوعه فقال إن الباشا سمع وهو في قلب جزيرة العرب أن نابليون قد فر من منفاه في جزيرة إلبا فرجع الباشا مسرعاً إلى القاهرة ليدافع عن مصر^(١) . لكن مورييه Mouriez وهو كاتب فرنسي آخر يكذب هذه القصة وإن لم يذكر سبباً آخر لعودة محمد علي^(٢) . وثم شخص ثالث هو Burckhardt الذي أقام في بلاد العرب وحصل على الحقائق من مصدرها ، وهو يعزو رجوع الباشا الألباني إلى أسباب لا تعلو من قدره إذ يقول :

« لم يجد طوسن أباه في المدينة ؛ وذلك لأن محمداً علياً لما أيقن أن الموارد المادية والوسائل الحربية في شمال الحجاز لا تبعث في نفسه أملاً في الفوز ، استقر رأيه على أن يترك أمر الحملة نجاحها أو إخفاقها لولده ، لكيلا يعرض ما جناه من حسن السمعة إلى النقصان »^(٣)

ومهما يكن سبب نكوص الباشا ، فإن طوسن وعبد الله أيقنا أن الخير كل الخير في أن يجنحا إلى السلم ؛ فاتفقا على أن يتخلى الوهابيون عن كل مطالبهم في الأرض المقدسة ، على أن يترك المصريون لعبد الله كل ما استولوا عليه من مدن القصيم . وبذلك كان الصلح تراضياً بين الطرفين ، وكانت أهم شروطه ما طلبه طوسن وهو أن يرد العدو كل النفائس التي استولى عليها الأمير السابق

(١) منجن في كتابه السالف الذكر الجزء الثاني ص ٤٨ .

(٢) مورييه في كتابه السالف الذكر الجزء الثاني ص ١٥٧ .

(٣) بركهاردت في كتابه السالف الذكر الجزء الثاني ص ٣٤٧ .

سمود من الحجرة النبوية بالمدينة^(١) . وإذا كانت الفئتان المتحاربتان تدينان بالإسلام ، وإن كانت كلتاها تعد الأخرى خارجة عليه ، فإنهما لم يغب عنهما وهما توقعان شروط الصلح قول الله عز وجل في كتابه الكريم :

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ . وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ
الَّذِينَ كَفَرُوا كَلَّةً لِلَّهِ »^(٢)

وكان المصريون والوهابيون يعدون المعاهدة أشبه شيء بهدنة غير محدودة الأجل ، يستطيع كلاهما أن ينقضها متى أراد . لذلك لا نعجب إذا رأينا محمدا عليا وعبد الله يعدان العدة لمواصلة القتال . وكان أول ما فعله الباشا أن اختار لجيشه قائدا عاما في مقدوره أن يهاجم الوهابيين في عقر دارهم ، ويطفي جمرتهم في قصبة ملكهم في قلب جزيرة العرب . نعم إن هذا الزعيم الفطن قد حمل ابنه طوسن ذلك العبء الثقيل ، عبء الاتفاق مع العدو ، ولكنه حمله إياه وهو أكثر الناس علما بالصعاب الحربية التي تعترض فتح الحجاز ؛ ولذلك حرص الحرص كله على أن يختار في هذه المرة أليق الناس للقيام بهذه المهمة ، ففقد لهذا الغرض في القاهرة مجلسا من كافة القواد والوزراء والضباط ورجال الحكم ؛ وذلك لأن الباشا وإن كان هو الحاكم بأمره كان رجلا ديمقراطيا تسود بلاطه روح الأخوة وحب الخير . فلما أقبلوا بمحشدهم وحفاهم أخذ يذكر لهم الغرض من اجتماعهم ، ويشرح لهم خططه الحربية ؛ ثم أشار إلى تفاحة ملذاة

(١) المصدر عنه الجزء الثاني ص ٣٣٦ .

(٢) سورة الأنفال الآيات ٣٧ ، ٣٨ .

أمامهم وسط طنفسة كبيرة مفروشة في أرض الحجر ، وقال لهم : « من استطاع منكم أن يصل إلى هذه التفاحة فيتناولها بيده ثم يأتيني بها من غير أن تخطأ قدمه الطنفسة ، وليته قيادة الحملة على نجد » .

وكم من أمير رطب العود استلقى على الأرض وطرح جسمه على الطنفسة وقدماه تكادان تلمسان حافتها ، ثم مد ذراعيه لكي يصل إلى الفاكهة . لكن التفاحة كانت بمنأى عنهم لا تصل إليها أيديهم ؛ وأخذ كل منهم يدبر حيلة جديدة للوصول إلى غرضه ، ولكنهم عجزوا جميعاً عن نيل مأربهم . ثم قام إبراهيم أكبر أبناء محمد على ، وكان قصير القامة ممتلئ الجسم ، فأنحنى إجلالاً لوالده وعرض أن يجرب حظه .

وكان دأب إبراهيم أن يكون أول من يسخر من شكله . وقيل إنه لما تقدمت به السن وثقل جسمه غيره رجل من الناس بضخامة بطنه ، فكان جوابه : « لست أجهل أن بطني كبير ولكنه ليس مملوءاً بالطعام والشراب بل بالحلق والدعاء^(١) » . فلما تقدم إبراهيم إلى والده بمطلبه في صباح ذلك اليوم من عام ١٨١٦ سخر الحاضرون كلهم منه وأيقنوا جميعاً أنه لا محالة عاجز عن بلوغ غايته . ولكن سخرهم منه لم يلبث أن انقلب إعجاباً به ، حينما أخذ يطوى طرف الطنفسة إلى الداخل حتى أصبحت التفاحة في متناول يده . ثم مد يده فأخذها وحملها إلى والده فولاه قيادة الجيش المصري لساعته قبل أن يقوم من مقامه .

ويقص صبرى هذه القصة في كتابه الموثق المسمى الإمبراطورية المصرية في عهد محمد على^(٢) ، ولكنه لا يؤمن بها ؛ في حين أن باجريف Palgrave

(١) مصر منذ الفتح العربي في عهد محمد على تأليف پريس داثن ، أرمن طبعة فرمن ريدو باريس ١٨٧٧ ص ٣٦ .

(٢) الإمبراطورية المصرية في عهد محمد على والمسألة الفرعية طبعة جنتز باريس سنة ١٩٣٠ .

الإنجليزى الذى تقول عنه دائرة المعارف البريطانية إنه من اليسوعيين ، ثم أصبح من الدبلوماسيين ، والذى زار أواسط جزيرة العرب فى عام ١٨٦٢ — ١٨٦٣ ، نقول إن باجريف يروى أن أهل نجد قصوا عليه هذه القصة ، وأنها من الأخبار المتواترة هناك . وسواء أصحت أم لم تصح فإن أمرها لا يهمنا ، إلا من حيث دلالتها فى كتابنا الحالى على ما كان يعتقد فى مقدرة إبراهيم أبناء أعدائه السابقين .

ولما أتم محمد على اختيار قائده العام أخذ يتحين ساعة العمل ، غير أنه لم يطل به الانتظار ؛ فإن عبد الله لم يرد النفائس التى استولى عليها سعود . من الحجرة النبوية فى المدينة ، بل بلغ من أمره أن أرسل رسلاً من قبله إلى القاهرة يحملون رسالة جاء فيها :

« لم يبق لدينا شئ من النفائس التى وجدناها والدنا سعود عند قبر النبي وحملها معه ، بل بيعت كلها وبددت . أما حكم البلاد فاسمحوا لنا أن نقول إن فى استطاعتكم أن ترسلوا رسولاً من قبلكم يجمع لكم الأعشار »^(١) .

فأغضب هذا الرد محمداً عالياً وأجاب الرسل بقوله : « قولوا لمولاكم إنى عارف بأنه قد حصن المدن وحشد الجند وتأهب للقتال ، وليس هذا كله بخافٍ على . فأبلغوه نصيحتى أن يأخذ حذره ، ويحتاط لنفسه ، لأننى مرسل إلى الحجاز ولدى إبراهيم لينزل ببلادكم الخراب والدمار ، ويأتى إلى بأهلها أمواتاً أو أحياء » وهكذا أبدت الرغبة عن الصريح وعرف كل من صاحبه ما يبطنه له .

أما الصعاب التى كان لا بد أن يواجهها إبراهيم فتصورها حكاية الطنفسة التى قصصناها على القارئ من قبل . لقد عجز محمد على وطوسن من قبل عن الوصول إلى قلب بلاد العدو عجزاً تاماً . ولأق الغزاة من الصعاب ما تصوره قصة باجريف

(١) منجن فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ٦٧ .

صدقت أو كذبت . وكان هم إبراهيم أن يخترق بجيشه الصحراء الواسعة التي تكتنف بلاد نجد من جميع الجهات ، والتي قال الرحالة الإنجليزى فيها : « كم من فاتح عجز عن الوصول إليها ، واضطر إلى الابتعاد عن قواعده الحربية الأمانة ، وقطع الصلة التي لا بد منها بينه وبين هذه القواعد . على أن القائد إذا وصل إلى قلب الهضبة ، لا يلقى من المقاومة الجدية أكثر مما تلاقيه اليد التي تمتد لتناول التفاحة متى وصلت إليها »^(١) .

وعرف إبراهيم خطر الواجب الذي اضطلع به فأخذ يستعد له من فوره بتؤدة وأناة . وأعد والده العدة لإنشاء أسطول واف بفرضه مزود بما يلزمه من سفن النقل ؛ وجمعه في ميناءى السويس والقصير ؛ وفيهما أيضاً حشد جيشه . ولما نعرف عدد هذا الجيش بالضبط لأن كل ما لدينا من الإحصاءات مضطرب لا يشفى غلة الباحث ؛ وكل ما نستطيع أن نثبته واثقين أن إعداد الحملة قد استلزم ستة شهور كاملة ، وأن الوالى ضم إلى أركان حرب إبراهيم المسيو قاسير Yassière وهو فرنسى خدم فى جيش نابليون ، وأن الفرقة الطبية كان قوامها أربعة من الإيطاليين هم اسكوتو Scoto وچنتيلي . Gentili وتوديسكى Todeschini وششيو Socio^(٢) .

أما عبد الله فقد عرف من جواب رسله أن الحرب آتية لا ريب فيها ؛ فبادر بإرسال أحد عيونه إلى مصر يستطاع طلعها ليكون على علم باستعداد عدوه الحربى . فلما عاد ربيئته إلى نجد عقد عبد الله مجلساً عاماً وأمر الرسول أن يقص على القوم ما رأى ، وهاك ما حدث منقولاً عن بلجريف :

(١) كتاب بلجريف السالف الذكر الجزء الثانى ص ٤٨ .

(٢) مورييه فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٨٦ .

« وكان الرجل البائس قد انطبع في خياله البدوي ما رآه من قوة مصر الحربية وجيوشها الجرارة ، وما شاهده فيها من أبهة ونظام ؛ فأخذ يصف لمواطنيه ما هاله من قوة الباشا وكثرة جمعه ومدافعه وفيالقه وركبانه وشاته وكل ما أعده لغزو نجد ؛ فذعر القوم وامتقع لونهم . فلما رأى ذلك عبد الله قطع عليه قوله وأمر بهذا الحدث الذي تجاوز الحد في صدقه ، فسيق إلى النطع حيث ضربت عنقه لساعته جزاء له على وهنه قوة المسلمين »^(١) .

ولم تغفل أم إبراهيم عن تقوية قلب ولدها ؛ ولسكنها لم تلجأ إلى مثل ما لجأ إليه عبد الله من الصرامة ، بل أخذت تدعو الله أن يجعل النجاح حليفه . ولما هم بتوديعها في اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٨١٦ ، عانقته وناطت برقبته عقدا من الجوهر ، وسألته أن لا ينزعه من عنقه ليلاً ولا نهراً حتى يهديه إلى الضريح الشريف . فوعدتها إبراهيم أن يعمل برغبتها ، وأقسم أن لا يحلق رأسه حتى تضمه إلى صدرها بعد أن يعود إليها ظافراً^(٢) .

وأبحر الحاج المجاهد من ميناء القصير في الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٨١٦ . وبعد ستة أيام من هذا التاريخ ألقت سفانته مراسيها في ميناء ينبع . وما كاد يدخل المدينة المنورة في اليوم التاسع من شهر أكتوبر حتى أسرع إلى قبر المصطفى ووقف أمامه خاشعاً ، ثم وضع عليه العقد الذي أهدته إليه أمه . ولشد ما سر بهذه الهدية الثمينة شيخ الحرم وهو أغا حالك السواد ، فبسط كفيه إلى السماء ودعا الله جهرة قائلاً :

« أيها النبي الكريم : ها هو إبراهيم باشا ابن محمد علي قد خر ساجداً

(١) كتاب بلعريف السالف الذكر الجزء الثاني ص ٤٩ .

(٢) منجن في كتابه السالف الذكر الجزء الثاني ص ٧٨ .

أمامك ؛ وقد قدم إلى ديارنا ليهلك أعداء دينك فأيده اللهم بنصرك وهبه القدرة على تأييد شرعك ونصرة كتابك المقدس وتمزيق شمل العصاة الوهابيين»^(١).

وأكمل القائد الشاب هذا الدعاء بقوله : « أيها النبي الكريم ! لقد أعانني الله أنا إبراهيم بن محمد على باشا على استرجاع البلدين المقدسين مكة والمدينة ، وجئت ضريحك الشريف ضارعاً متوسلاً أطلب المعونة فيما أنا مقدم عليه من الحرب والكفاح . فاجعل اللهم النصر حليفي ، ووفقني إلى معرفة مقاصد العصاة ، فإن أعدائي هم أعداؤك . وأعني على تمزيق شملهم وتشتيت جموعهم فإني لن أدخل سيفي في غمده حتى أفرق جمعهم»^(٢).

ثم تملكت إبراهيم روح الحماس الديني فأقسم أن يعتق جميع من ملاكت يمينه من الأرقاء بيضاً أو سوداً — وإن لم يكن في مقدوره بطبيعة الحال أن يرد إلى الأغا المسكين ما فقدته . ونذر أن لا يذوق طعم الحر من ذلك الحين . ويقال إنه عمد إلى زجاجات النبيذ التي كانت في مخازن ميرته فألقى بها في النار^(٣) . على أن هذه الغيرة الدينية لم تقلل من صرامة النظام الذي كان سائداً في الجيش المصري ، فقد كان الإعدام جزاء كل من يعصى أمره . وعرف العرب منه ذلك فأدركوا أنه إذا كان يقسو كذلك على رجاله ، فسيكون أشد قسوة عليهم ، فاستولى الرعب على قلوب الضعفاء منهم .

ورأى عبد الله أن من الحكمة أن يسمى إلى استرضاء إبراهيم وإن لم يكن

(١) كان بودنا أن ننقل إلى القراء نص دعاء شيخ الحرم وإبراهيم ولكن بلجريف قد أخذه عن البدوق شبه الجزيرة وكتبه بالإنجليزية فاضطررنا لترجمته عنه واستبدلنا لفظ الجلالة في آخره باسم النبي صلى الله عليه وسلم كما هي عادة المسلمين في الدعاء .

(٢) بلجريف الجزء الثاني ص ٣٠ .

(٣) مصر في القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعة بول بوازارد ص ٢٧٦ .

بطبيعته رعيدياً خوار العود ؛ فقرر أن يرسل من قبله رسولا يفاوض إبراهيم في شروط الصلح ؛ ولكنه لم يجد ذلك الرسول لأن الناس كلهم تذكروا ما حل بالباسوس الأول . وفي آخر الأمر تقدم أحد الشيوخ وعرض أن يقوم بالمهمة مشروطاً أن يسمح له بقراءة الرسالة التي سوف يحملها . وكان عبد الله قد كتب إلى إبراهيم على ورقة قذرة سمراء رسالة قصيرة خالية من كل معاني الجاملة ، ماؤها الازدراء والتحقير ؛ فكانت لذلك أبعد الأشياء عن الوثائق الدبلوماسية التي تتطلبها هذه الظروف . فلما قرأها الشيخ التفت إلى رئيسه وقال :

« إني إذا حملت هذه الرسالة كنت كالساعي إلى حتفه بظالقه . فإذا شئت أن أذهب فأذن لي أن أكتب الرسالة باسمك وإلا فاعفني من الذهاب » .

فرضى بذلك عبد الله وكتب الشيخ رسالة تتم عن كفاية وحنكة سياسية وختمها الزعيم الوهابي بعد طول تردد . فلما استقبل إبراهيم الرسول خاطبه بابهجته القاهرية التي لم تفارقه طول حياته :

« ماذا جئت لنا أيها الرجل من سيدك النجدي . . . » فقدم الرجل إلى إبراهيم رسالته ؛ فالتقى عليها نظرة سريعة ثم ضحك بأعلى صوته ساخراً مستهزئاً ، والتفت إلى أحد أتباعه وقال له : « يا غلام هات الخطاب الذي أتى به إليّ منذ أربعة أيام سعدون . . . القادم يخطب ودنا » فجىء له بالخطاب وإذا به رسالة كتبها سعدون ومعهما خطاب مرسل إليه من عبد الله يقول فيه : « لا يغرنك غير مصر ونهيقه فإنه لا يملك لك نفعاً ولا ضراً »

وبعد ذلك قال إبراهيم : « هاك ما يكتبه مولاك عني إلى أصدقائه » ثم أشار إلى الرسالة اللطيفة التي كانت ملقاة أمامه على الأرض وقال : « وهاك ما يكتبه إليّ — قل لهذا . . . إني سأتيه بالجواب بنفسى في الدرعية . والآن

اذهب من أمامي وخذ معك هداياك ؛ ولو لم تكن رسولا لأمرت بضرب عنقك » .
ورأى النجدي أن لا سبيل إلى الملاينة أو الاعتذار فلم يحاول شيئا منهما ،
بل عاد مسرعا إلى عبد الله وفكر وهو في الطريق في الخطة التي يسلكها .
وكان يعرف أنه إذا أخبره بحقيقة ما حصل له كان جزاؤه القتل لا محالة ؛ فباع
فرسه وما كان معه من هدايا الصلح بثمن غال ؛ ولما بعد عن معسكر إبراهيم اشترى
بالمال اثني عشر عبدا نوبيا ألبسهم لباسا حسنا ، وسار بهم إلى داخل البلاد ،
وأخذ يذيع أينما حل أنهم هدايا من الباشا إلى أمير نجد عربونا للاتفاق والصدقة .
ووصل الشيخ إلى الدرعية والمؤذن يدعو المؤمنين إلى صلاة المغرب . وأقبل
على عبد الله وهو بين أكابر قومه ، ورأوا بأعينهم الرسول وحاشيته الفخمة ، فلم
يشكوا في أن إبراهيم يلمس الصلح . ولما فرغ الشيخ من حديثه ، وعات
أصوات أهل المدينة بالتهليل والتكبير ، قال عبد الله : « والآن فلنطلع على كتاب
ذلك المارق » فأجابه الرسول كما يقول بلجريث : « إن الخطاب يحتوي على أمور
لا تصح تلاوتها إلا في مجلس خاص ؛ وتوصل إلى عبد الله أن يؤجل قراءة الرسالة
حتى يعقد ذلك المجلس . فرضى بذلك عبد الله كارها ، واستصحب الرسول إلى
قصره يحيط به وزرائه وخواص حاشيته ومن خافهم العبيد » .

ثم يقول نفس المؤلف بعد ذلك : « فلما احتواه الديوان طاب عبد الله
الخطاب مرة أخرى ؛ ولكن الرسول الخادع الفطن رد عليه بقوله : إن الخطاب
يحوى أسراراً خاصة لا يصح أن تراها غير عينيك أو تسمعها غير أذنيك ؛ فدهش
عبد الله وأمر رجاله بالانصراف . فلما انفرد الرسول بسيده ورأى أن لا مفر من
إطلاعه على جلية الأمر قال له : لن تاتي جواباً على مقترحاتك إلا ما سيأتيك به
إبراهيم باشا بنفسه في الدرعية ؛ فإذا كنت رجلاً حقاً فأعد له ما استطعت من

قوة : . ثم أخذ يصف إلى عبد الله كل ما رآه وسمعه ، واعتذر له عما اضطر إليه من خداعه ساعة من الزمن لكيلا يثبط هم أتباعه ويروعهم بتنبيههم إلى خطر وصول العدو إلى عاصمتهم . وختم حديثه بقوله : لكن الخطر داهم وستضطر إلى خوض غمار الحرب في أرض نجد نفسها » .

هذه القصة قد سمعها بلجريف في المكان الذي قصها فيه الشيخ ، ومن أفواه أناس يجزمون بصحتها وإن كان قد مضى على وقوعها عشرات السنين . ويؤكد هذا الكاتب أن الشيخ لم يمسه سوء ، وذلك لأن عبد الله لم يكن بالأخرق ولا بالجبان ، فصرف همه إلى حشد جيوشه ، وأخذ ينتظر عدوه عند رؤوس الطرق النجدية المؤدية إلى داخل البلاد .